

عَبَدَ اللَّهُ عَبْدَ العَرَبَةِ وَالرَّجُلِ

حينما مات فهميم منذ شهرين لم يكن محمود قد هبأ نفسه ليحل مكانه . لقد استيقظت الاسرة ذات صباح فوجدت فيها ممدا بلا حراك . « لم يشكُ مرضا يوما » ، قال محمود لنفسه وقد انحطَّ بصره على البقعة التي كان يزحف عليها ظله المنكمش . كان محمود يقود عربته في مرتفع « الطابيات » ، وكانت مثقلة باثاث منزل .

لقد مات لمحمود اكثر من حمار . ولكن فيها شيء آخر . كان يعرف ما ينبغي عليه ان يفعل في مختلف الظروف . ولم يكن اسم فهميم قد اطلق عليه عبثا . فهو يبطن عند ما يتعين عليه ان يبطن ، ويسرع حين تدعو الحاجة الى ذلك . حتى انه عاد الى البيت مرة وحيدا . وكان محمود يتفنن في مناداته . لقد اطلق عليه كلمة « فهميم » اول ما اطلق عندما لاحظ انه حمار غير عادي . ثم تعددت الاسماء بعد ذلك : كفاهم ، وفهمي ، وفهان . وكانت آخر اسمائه له « ابو الفهم » .

لقد طرق الباب عليه في الصباح سالم وقال له :

« اريد ان انقل اثاث البيت » .

فوافق محمود من حيث المبدأ .

« والى اين ؟ خيرا ان شاء الله » .

« الى داربي في المشروع » .

« مبروك يا سالم » .

« اتفقنا ! اريد همتك وهمة فهميم . كيف حاله ؟ »

مرة اخرى فهميم . لماذا يذكرونه به ؟

« بسلامة رأسك . لقد مات منذ شهرين » .

وفكر سالم ان يعيد النظر في عملية نقل الاثاث .

« ولكنه سيكون من الصعب عليك نقلها » .

فردَّ الجمال :

نشرنا في العدد الماضي من « حوار » قصة « المربي الفاضل » لميشال نقولا ، التي فازت بالجائزة الاولى في مسابقة « حوار » للقصة القصيرة في البلدان العربية لسنة ١٩٦٥ . وننشر في هذا العدد القصتين اللتين فازتا بالجائزة الثانية (« العربية والرجل » لعبدالله عبد) والثالثة (« حروش » لسنة صالح) . وكانت قد اختارت القصص الفائزة لجنة تحكيم تتألف من الاستاذ توفيق يوسف عواد والدكتور عبد السلام العجيلي والاستاذ جبرا ابراهيم جبرا

« لا شيء يصعب على محمود . »

« العوض بحياتك . اتفقنا اذاً . »

« اتفقنا » . استرجعها محمود لنفسه بصوت مسموع مستأنسا . وتذكر كيف شدت نفسه الى العربية عندما يم صوب بيت سالم في الصباح ليبدأ نقل اثاث المنزل ، كما تذكر ايضا نقلاته الست ، ثم طمأن نفسه : « هذه آخر دفعة على كل حال . وبعدها ؟ وبعدها ماذا ؟ انك ستمضي الى البيت دون شك . يكفيك ما قمت به اليوم . انت متعب . » هو متعب ! هذا لا ريب فيه . ولكن التعب شيء ينبغي ان لا يفكر فيه الآن . انه لا يزال في بداية مرتفع الطابيات . فليتشاغل اذاً بأي شيء آخر . وظل لحظة بلا تفكير محدد . كان ذهنه فارغا تقريبا . لكنه لم يكن املس . كان في تلك اللحظة اشبه برجل يقف على مفترق طرق ذات مساء صائف في مدينة ليس فيها سلاوي .

وتابع قدميه وهما قدوسان رسمه وقد اخذ ينزلق منسحبا الى الوراء . فانزلق ففكره بعينيه من بين ساقيه بلا ارادة منه الى الوراء ايضا حتى طرف الشارع عبر اسفل العربية . ولاحظ رجلا يجتاز الطريق الى الرصيف الثاني ، وامرأة ماثلة تحمل دلوا خمن انه ملآن . وامسك بطرف الشارع فتساءل : « كم بقي عليّ من الطريق ؟ » كان لا يجرؤ على رفع بصره لاستطلاع دربه . ان شيئا ما قد بدأ يخزّه في ظهره . وامامه عشرات الشواهد ، عليه ان يجتازها قبل ان يصل الى غايته . وطار بخياله الى الدار الجديدة .

هو ايضا كانت له احلامه . لقد فكر اكثر من مرة ان يدخر بعض المال . فجمع مائة وسبعا وتسعين ليرة . ولكن شيئا ما كان يحول دوما دون ازدياد هذا المبلغ . لقد رفض هذا الرقم بعناد ان يتحرك الى الامام ، حتى جاء يوم استنفدت معظمه عملية اجهاض ، ولم تُبقْ الا على خمسين منه ، بالرغم من شفاعة شهادة فقر الحال . ثم قضى موت الحمار

الاول مع كدّ ثلاثة اشهر على ما فضل منه .

لقد خطر له في ذلك الحين ان يفتح حانوتا . مجرد مبلغ صغير للايجار ، ومثله للعمل . وبعد ذلك : « من دهنه اقلية » .

ولكن ماذا كان يمكن ان يعمل به ؟ هذا امر لم يقف عنده طويلا . ولقد فكر بحانوت للخضار . وكان التفكير بمثل هذا العمل له مبرراته بالنسبة اليه . انه كثيرا ما يعاني من نفقات الخضار التي يحملها الى البيت . ولقد قال في ذات نفسه مرة : « انني ابيع الطازج منها ، واحمل البائت الى البيت » . ولا غرابة في ذلك . كان محمود في الواقع ابا لسبعة اولاد . اربع اناث وثلاثة ذكور . كما بحث يوما امكانية افتتاح محل للبقالة . ولكنه سرعان ما استبعدها ، اذ تتطلب معرفة بمسك دفاتر للزبن . وهذا ما لا قبل له به .

لم يرَ على كل حال اي من هذه المشاريع وجه الشمس . لقد ظلت في اضبارة المحفوظات . ولكن ما باله الآن يعيد النظر في الماضي وينفض الغبار عن تلك المشاريع ؟

اليوم سيكون في حوزته مائتا ليرة . بما فيها الخمس عشرة ورقة اجرة نقل اثاث المنزل . لقد قرر محمود عندما مات حمارة الاخير ان يدخر مبلغا جديدا . من المال — كماداته — كي يشتري به حمارا . غير ان بوادر مشكلة لاحت في افق الاسرة بالامس بسبب المبلغ ، لم تلبث ان انفجرت هذا الصباح عندما زفّ للعائلة نبأ صفقة نقل الاثاث .

كانت اكبر البنات من صف الاب . فقد كانت على ابواب خطوبة . لقد فكرت ان امتلاك ابنيها للحمار سيدعم مركزها في ذلك المجال . حتى انها تخيلت ان حمارا مشدودا الى عربة جدير بان يوقع اثرا اطيب في نفوس الحاطبين . اما الابن فقد اراد الحصول على المبلغ لتنفيذ مشروع رآه الاب هوائيا . في حين كانت الام تريد اقتطاع جزء منه لشراء ستائر . « مجنونة » ، قال محمود وقد ازداد انحناءه الى الامام ، بفعل تصاعد الطريق ، مما اضطره ان يبذل جهدا اكبر كي يحافظ على سرعته . « من يشتري ستائر لبيت بالايجار مخلص النوافذ ؟ وهناك الف شيء الزم منه . وأي شيء الزم من حمار اشدّه الى هذه العربة ؟ الى هذا الجبل الذي وقر كتفي وادماها . آه لو كان فهمي معي اليوم » .

واشدت حاجته الى حمارة الراحل . كان فهمي اكثر من حمار يساعد محمودا في العمل . كان رفيقا ، وكم باح له بمتاعبه العائلية . كان واحدهما يفهم الآخر . صحيح ان محمودا قد اقتنى كثيرا من الحمير ، ولكن فيها انفراد بميزات لم تتوفر في الآخرين . وكان هذا الاحساس بالحاجة يتفاقم كلما تصاعدت الطريق .

كان الوخز قد اخذ ينتقل من اسفل الظهر زاحفا الى المناطق العليا منه بعد ان ترجم الى الم . لقد شعر به في الوسط اول ما شعر . وبالتحديد ربما البكرة السابعة من العمود الفقري .

كان ذلك في الصباح بعد ان انجز قسما من العمل . لم يخطر له وقتئذ ان يستأجر عاملا لحسابه . كان محمود خلال حياته العملية كلها يشغل منفردا . حتى اذا صادفه صندوق ثقيل مثلا رفعه بين يديه واسنده الى مكان اعلى ثم نزل تحته وعتله على ظهره .

وازداد احساسه بالآلم بعد ان وصل الى كتفيه . « ما قيمة حمار الآن؟ انه يعادل وزنه ذهباً » . لقد تساءل عن ذلك في نفس الوقت الذي ادرك فيه ان عليه ان يدبر نفسه . لقد تلفت يمنة ويسرة . كان الوقت الثانية عشرة ظهرا . وكانت الطريق خالية . اما الشمس فعمودية فوقه . وفكر على نحو لا يتطرق الشك اليه ان الشمس قد وقفت بدورها في الصف المعاكس له ، وانها قد اختصته من بين البشر جميعا بكل ذلك الغضب الذي تنفثه في حزيران ، في الثانية عشرة من منتصف النهار . لعله بدأ يتدمر .

كلا ! ولكن ما الذي سقط من الحمل في المؤخرة فتحطم ؟ والقي نظرة من بين ساقبه عبر اسفل العربة . فلفت انتباهه بادیء ذي بدء انحدار الطريق الحاد حتى طرفها الاول في القاعدة . وسرعان ما ادرك استحالة التوقف ، رغم ان هذه الفكرة كانت لا تزال احساسا بعيدا غامضا .

ثم انسحب نظره على نحو عكسي مستطلعا ، فتمهل عند الاداة المحطمة هنيهة ، وتابع بعد ذلك انسحابه حتى استقر في ذات نفسه . فقال : « ترى كم ثمنها ؟ انها من البلور الجيد » . وظلل جبينه نوع من الكدر : « ليحسم قيمتها اذا شاء ، فقد وقع ما وقع » . واستغرب سقوطها ، مسترجعا في ذهنه خلال ثانية من الزمن الحالة التي تركها عليها . وندم لانه لم يصطحب اصغر اولاده في هذه العملية : لو كان معه فلعله من الممكن ان ينبيه في اللحظة المناسبة . كذلك فكر . اما من ناحيته فلم يألُ جهدا في الحرص على الآنية . لقد دارى امرها فوضعها في صفيحة بعد ان لفها بجرق قديمة منعا للاحتكاك . وفكر بعجب : « اننا نحسب لكل امر حساب ، ولكن شيئا اقوى منا لا يني يد لنا لسانه بين حين وآخر . اننا لا نستطيع ان نقف في وجه المكتوب » . وقال ايضا وهو يزرر عينيه ليمنع عنها ملوحة العرق : « ربما لو كان الجبل اطول ... من يدري ؟ » وفكر ان اتفه الاشياء قد تسبب للمرء احيانا اذى بالغا . فقرر ان يكون احسن استعدادا في المستقبل . انه لحسن بلا ريب ان تفكر على نحو افضل في المستقبل . ولكن ماذا بشأن الآن ، وانت على هذه الحال ؟ هوذا شيء آخر يسقط . انه المنبه هذه المرة .

وخيل له لفترة ان الزمن قد توقف ، وان العالم قد خلا الامة ، مشدودا الى هذه العربة المثقلة ، والشمس فوقه تصب عليه جام غضبها . وان تاريخه هو ، محمود ، كحمال بدأ العمل منذ الخامسة عشرة ، ماضيه ، حاضره ، ومستقبله ، - مهدد في تلك اللحظة .

« هذه الدفعة لا ينقلها ثور . اعمل حسابك يا محمود . » ذلك آخر شيء قاله سالم . وفكر :
« ربما اخطأت في تقدير قوتي ، وهذا ليس ذنبي على اية حال . ان المرء يحبل نفسه حقا . هيا
يا محمود واخلص من هذه الورطة اذا كنت رجلا » . ثم قال بصوت مسموع : « انما اردت
ان انتهي باكرا » . كان لا يزال هناك متسع من الوقت للورور على مخزن مصطفى الطحان .
« يا الهي ، ان ورائي ثمانية افواه ، تأكل رأس الحية » .

وافرغ محمود مزيدا من القوة . غير انه في الواقع لم يصف شيئا جديدا الى قدرته
السابقة سوى ضغط جزئي على ذراعي العربية ، لم يستطع المحافظة عليه طويلا . اذ ما لبث
ان تراخت قبضته ، فادرك انها النهاية . ورشح جلده عرقا اكثر من ذي قبل نتيجة لشحنة
الجهد التي بذلها مؤخرا ، وقد اضيف اليها احساس بالفشل لم يكن متوقعا . ونظر حواليه
بلا هدف محدد ، شأن انسان موشك على الغرق .

كانت عيناه مليئين بالدموع والضيء الباهر . وكان العالم عن يساره ظلالات تنقصها
الحياة . لقد مس بصره فيما مس ، البحر والشريط الرملي والبساتين . كان يجوز في تلك
اللحظة منطقة ليس فيها بناء . وكم حملت له هذه الفجوة في الماضي انشراحا خاصا . واحس
ان الاشياء بدأت تفقد بريقها شيئا فشيئا بالنسبة اليه : فالبحر صفحة زجاجية غائرة
اللون يفصلها عن الشاطئ حد رملي باهت . وكانت البساتين ملفوفة بغلالة رمادية . اما
عن يمينه فثمة جندب يصير في اسفل جدار مقهى الطابيات .

واستحال الاحساس القديم بالخوف الى شعور بالعجز . واحتلت المركز فكرة التوقف ،
غذاها على التوالي احساس بالتظلم والتوحد والقهر والسن والتفاهة والعقوق ، وكل ما يمكن
ان يكون في صفه لو كانت الحال غير ما هي الآن .

ولكن التوقف اضحى مسألة ينبغي عليه ان يعيد فيها النظر . كان قد قطع مسافة
طويلة من الطريق الصاعدة حتى اشرف على نهايتها . وامسى الانحدار اكثر حدة . كان
يحتاج في حال توقفه الى رجل يدعم عجلتي العربية من الخلف بجريين . « لو توفر ذلك الرجل
فمن يضمن توازن العربية وعدم انقلابها على مؤخرتها في اللحظة الفاصلة بين تثبيت الحجر
وصدمة التوقف ؟ » هكذا فكر محمود وهو يرمش بعينيه الملتبتيين المخلصتين بالدموع . ثم
اضاف صعوبة تحرره من الحبل المار فوق كتفه اليسرى عبر صدره في اللحظة المناسبة .
ولم يلبث ان واجه نفسه بهذه الحقيقة : « ولكنك وحدك يا محمود ، وحدك في هذه
الطريق . لا اولاد ، ولا امرأة ، ولا عابر يدعم عجلتك بحجر . يا هوه ، هل خلت الدنيا
من البشر ؟ ماذا بك ؟ هل اصبحت عاجزا تماما ؟ تبكي ؟ كلا ، تضحك ؟ كلا ، انت
تبكي وتضحك معا ؟ كلا . لكنني سأبكي حتما عندما لا يكون هناك ما اعمله . ان المرء
لا يفتر الى الحيلة . فثمة دوما ما يمكن عمله . يبدو لي انه لا يزال في مقدوري ان افعل

شيئا ما . هيا يا محمود وامش في خط منحنٍ . ولكن الطريق تطول . غير انه يسهل عليك صعودها .

وانحرف محمود بعمرته ، ودبت الحياة في العجلة اليمنى بعد ان اوشكت على التوقف . في حين تباطأت اليسرى وهي تدور على نفسها .

وازدادت ثيابه التصاقا بجسمه . وامست كل خلية فيه عينا تنضح عرقا . وتصاب عرقان في جبهته . واحس شريطا باردا تدحرج على ساقيه وقد انطلق من مغارة الفخذ . ونشطت اليسرى بينا اخذت اليمنى تدور على نفسها . لقد طفا الرأس فوق سطح الماء من جديد . « عندما اصل الى تلك الصنوبرة ... تلك الصنوبرة ... ماذا بعد ؟ سأجد اولادا وسأطلب اليهم ان يدفعوا العربية من الخلف . هيا يا اولاد وادفعوا العربية مع عمكم المعجوز . ولكن الاولاد يلعبون عادة على عتبة العابد . ودار العابد امست وراءك منذ زمن طويل . اذا لا يوجد اولاد . سابكي هذه المرة دون ريب . ها انت تنسى مرة اخرى مواقع الاشياء وقد نسيت من قبل » . وسطعت في ظلام خياله كلمة « فحاتم » فاستدرك على الفور ضاحكا : « ولكن اسمه مصطفى الفحام وليس مصطفى الطحان . من اين اتيت بهذا الطحان يا محمود ؟ انت تهرف » .

كانت الشمس حتى تلك اللحظة قد ركزت غضبها عليه . لقد بحثت في الشارع عبثا عن ضحايا آخرين . كانت هي الاخرى تبدو متوحدة وضائقة بحملها . انها راحت تقرع قرعا متواصلا على صدغيه وتكوي نقرته . ولكن آلامها لم تكن شيئا ذا بال اذا قورنت بآلام ظهره . فمنذ قليل فرقع شيء ما في جسمه . وارتاع منه في البداية فارتحت ركبته . لكنه لم يلبث ان اطمأن في اللحظات التالية حيث لم يقع ما يخشى منه . « انها جراح ورضوض قديمة . كسور وصدوع اكثر من ان تحصى موزعة في انحاء هذا البدن المهدم . لعل التعب قد حرك احدها » . ومع ذلك لم يُدخل هذا التعليل كثيرا من الراحة الى نفسه . كان قلقا بشأن ظهره على نحو خاص .

ولاحق قدميه الحافيتين وهما تمران فوق ظله كأنما تحاولان ان تتخطياه . كما لاحظ انفراج اصابع كل قدم عندما تلامس الارض ثم تضغط عليها لتتشنج مرتفعة في الهواء . وشده شيء الى داخله . « من يستأهل مثل هذا التعب يا محمود ؟ ثلاثون سنة وانت تعتل على ظهرك . بيتك بالايجار ونوافذك بلا ستائر واولادك يخرجون منك . هه ؟ لنرى ماذا سيصيرون في المستقبل ؟ فرسان برماح ؟ هاه . اي شيء في الدنيا يعادل آلام ظهرك الآن ؟ ولكن اذا ثابرت على التفكير فيه ... طيب ، طيب بماذا افكر ؟ خذ ام محمد مثلا . آه بنت الكلبة ! لقد رفضت ان تنام معها بالامس ، من اجل الستائر . لو تعلم كم

يكلف الحصول على القرش ؟ ولكن ماذا بشأن ظهرك ؟ ظهري من جديد . آه . ماذا لو تصدع ؟ ولكنه لم يعد ظهرك الآن . احيانا افكر ذلك لولا الالم . اما ذراعاك فلن تكونا لك بعد قليل على كل حال . وسيزول دبيب النمل منها » .

كان الالم في تلك اللحظة قد احتل الظهر والنقرة وركز فيها جيوشه . ثم راح يوسع منطقته فاتجه ناحية اخرى واخذ يغزو الطرفين السفليين . لقد بدأ بالرجل اليمنى . كان الاحتلال كاسحا ومريعا . وقد تم له كل شيء في نفس اللحظة التي انطلق فيها . حتى ان الجسم لم تسنح له اية فرصة للمقاومة . لقد وجد نفسه مسحوقا تحت ضربة صاعقة . ثم انتهت المعركة بانتصار الالم . ولم يبق منها الا آثار بروق . اما اليسرى فقد استنفرت كل ما لديها ، وكمنت للعدو . لقد تهيأت تماما . ولكن ليس الى الحد الذي يمكن ان يضمن انتصارها . لقد استنفدت حيويتها خلال هرج التهيؤ . لعلها كانت تدرك ان المعركة خاسرة . ولكنها لم تشأ ان تستسلم دون مقاومة . لقد فقدت على كل حال تعقلها ، فراحت تخبط خططا . وفي الوقت الذي امتد فيه التيبس الى الرجل اليمنى ، وامست هزيمة الجسد محققة ، ظهرت مشكلة جديدة .

كان التعرق قد وصل الى ذروته ، فتمعين على محمود ان يبذل جهدا خاصا كي يظل ممسكا بذراعي العربة . ولاح له ان المحافظة على هاتين الذراعين باتت حقيقة اكثر من الالم . فقد بدأت يدها المتعرقتان نخوانانه بدورهما .

وبينا كانت جميع الدلائل تشير الى انه سينفض يده من هذا الامر ، اتصل الحبل من جديد . « لماذا مات فهم ؟ كان حارا صغيرا ولكنه جيد . هش هش يا فهم ويمشي . هش هش يا فهم ويسرع . طريق الطابيات طريق صعبة . لكنني كنت سأدفعه من الخلف . ليس فهم اقوى من الثور ، غير انه اكثر صبرا . والرجل يفضل الاثنين . الستائر شيء حسن بلا ريب ، ولكن لا معنى لها في بيت بالايجار . ليست ثمة طريق اخرى غير طريق الطابيات » .

وتلاحقت انفاسه . وبات لهائه اكثر تقطعا . كان يقترب شيئا فشيئا من الفحيح . ولكنه رغم ذلك فقد تابع طريقه . لانه كان يدرك ان الرجل اكثر قدرة على احتمال الالم طالما هو قائم على قدميه ، وطالما هو مستمر في سيره الى الامام .